المنهج فى بناء الفلسفة الجديدة

أ.د. عزت قرنى

أولاً: لم الفلسفة الجديدة؟

لا توجد ثقافة، أياً ما كان شأن الجماعة التى أنتجتها، إلا وهى تحتوى ، صراحة أو ضمنا، على عدد أساسى من المبادئ والتوجهات العامة التى توجه إدراكها للعالم والإنسان وفهمها وحساسيتها وتفضيلاتها الأخلاقية والجمالية وغاياتها وقواعد سلوك أفرادها وسلوك الجماعة على السواء. هذه المبادئ والتوجهات العامة هى «الأصول»، ولا يمكن أن نتصور ثقافة ومجتمعا إلا ويضم أفراداً أو مجموعات تهتم بتلك الأصول وتصوغها وتعلنها وتدافع عنها، وقد تعدل منها شيئاً أو أشياء بحسب سير العمل واختلاف الزمان. «أهل الأصول» هؤلاء قد يتسمون، عبر التاريخ منذ أقدمه، بتسميات مختلفة بحسب المجتمعات والعصور، وقد يكونون من أهل السياسة أو من أهل الدين أو من أهل المعرفة. أو من أهل الفكر المستقل أو من أهل الإدارة العليا أحيانا كذلك، أو من غير هؤلاء وأولئك. وإذا كان المصريون القدماء قد رأوهم فى الكُتاب والكهنة والوزراء، وكان اليونان قد انتهوا إلى تسميتهم باسم «الفلاسفة»، وظهروا فى الحضارة الإسلامية على هيئة علماء أصول الدين، فإنهم جميعا من أهل البحث فى الأصوليات، أى فى المبادئ والكليات والتأسيسات، وهو البحث الذى تسميه الحضارة الغربية اليوم، من بعد اليونان، «بالفلسفة»، ونفضل نحن أن نسميه باسم عربى واضح هو «مبحث الأصوليات العقلية»، وإن كنا، لأسباب عملية واضحة للعيان، مضطرون إلى استخدام كلمة «فلسفة» وما يشتق منها، على الأقل لبعض الوقت.

والسؤال الآن هو: فيم تقوم فلسفتنا، أو أصولياتنا العقلية، وهى الضرورية تماما لتوجيه الفهم والحساسية والسلوك والحكم جميعا؟ لقد توهم كثيرون، منذ أحمد لطفى السيد، أن لنا أن نستعير أفكار الغرب وأسلافه، وتوهم بعض آخر، وأخذ عدده فى

الازدياد منذ هزيمة عام ١٩٦٧م المخزية، أن أصولنا العقلية ما هي إلا قضايا الفقه وعلم الكلام القديمين، وأخذ في نبش موروث الماضي المعرفي وفي إعادة نشره على ورق أبيض مصقول بعد أن كان قائما في صدور الرجال وفي الصفحات الصفراء. ولنكتف هنا بالقول إن كلا الفريقين مخطئ خطأ جوهرياً يقوم، في كلتا الحالتين، على جهل بحقيقة سير التاريخ وتحول المجتمعات وخصائص الثقافات جميعا، حيث إن الفريق الأول لم يدرك أن الأخذ عن الغرب، من حيث الأفكار الموجهة لكل شئ أى المبادئ، أمر غير ممكن ثقافيا وإنسانيا إلا بثمن الخضوع التام له والرضى بالتبعية بإزائه. والواقع أنه لا يمكن مطلقاً نقل ثقافة من جماعة إلى أخرى على أن تظل الجماعة الثانية محتفظة بكيانها الذاتي واستقلالها: إن الثقافة لا تستزرع في بيئة غير بيئتها، فإما أن تكون ابناً لها أو أن تكون غريبا عنها، ولا توسط، وهو ما لا يمنع من نقل أدواتها ومنتجاتها حيث إن هذه إنما هي من «المحايدات» كما أنها ليست من الأفكار والمبادئ والغايات. وأما الفريق الآخر، فإنه نسى عامل مر الزمن واختلاف الظروف وتوهم أن ما قاله أبو حنيفة أو واصل ابن عطاء هو ذو حياة إلى اليوم (ونلاحظ أننا نتحدث دائما عن انتاج البشر، أما القرآن والسنة الصحيحة المفسرة والمكملة له فإنهما يقعان خارج ذلك النطاق). إن الفريق الأول يصطدم بمنطق الثقافة، كما يصطدم الثاني بمنطق الزمان والثقافة معاً، لأن الثقافة الإسلامية التقليدية قد أكملت دورتها وماتت مع انهيار الإمبراطورية العثمانية (وأما قيام ثقافة دينية إسلامية جديدة، فهو أمر ممكن، ولكن على أساس النظر الجديد تماما إلى أصول الدين المعبر عنها في القرآن الحكيم، الذي هو، بحكم التعريف، خارج الزمان وخارج البشرية).

ما نتيجة كل المقدمات التي سبقت، والتي وضعت على هيئة الإيجاز الشديد؛ إنها أننا ثقافة جديدة، إذن نحن نحتاج إلى فلسفة أو أصوليات جديدة وخاصة بنا نحن، ونحن وحدنا القادرون على صنعها والمطالبون بذلك. المطلب إذن هو إنشاء فلسفة أو أصوليات عقلية جديدة من الألف إلى الياء. فكيف السبيل إلى ذلك الإنشاء، وكيف يتم بناء الكيان النظري التأصيلي الضروري لثقافتنا ضرورة الدماغ للجسم وضرورة الغدة النخامية لسائر أنشطة الجسد الحسي؟ هنا تظهر أمامنا مسألة المنهج

وعلى نحو مسيطر وملح معاً.

ثانياً: عن المنهج وجه عام

المنهج لغةً هو الطريق الواضح والطريقة، والمنهج هو خطوات تُسلك على ذلك السبيل. وهكذا، فإن المنهج طريقة منظمة مقصودة فى التعامل مع أمر ما، وتتكون من خطوات على التتالى. ويمكن أن نقول، على التعميم، إن المنهج هو الطريقة المنظمة المطردة، وذلك أياً ما كان ميدان تطبيقها وفى البحوث النظرية، فإن المنهج قد يقال على طريقة تناول الموضوع المعين وخطوات البحث فيه، كما قد يقال على طريقة عرضه أمام الآخرين. ويشير الجانب الأول إلى عمليات التفكير وإلى الذات القائمة على البحث، بينما يشير الجانب الثانى إلى القضايا التى يتجسد فيها البحث وهو يعرض على الآخرين شفاها أو كتابة، أى أنه يتصل بترتيب عرض المسألة وخطوات البحث ونتائجه على نحو منظم متصل، وهو ما يجعل ذلك العرض يكوِّن كلاً متسقاً.

ومن الطبيعى أن تختلف المناهج بحسب الميادين وبحسب الموضوعات، ولهذا فإن هناك طريقة عامة فى التناول الفلسفى للمسائل، وذلك من حيث هدف السعى إلى الوصول إلى مبادئ وأصول عامة كلية، بطريق التفكير العقلى النظرى، ومع ضرورة تقديم البرهان أو الدليل أو الحجة أو المبرر، على الأقل، لكل ما يقترح ولكل انتقال من مقدمات إلى نتائج. وفى نفس الوقت، فإن كل فيلسوف أو أصولى تكون له طرائقه الخاصة فى داخل ذلك الإطار المنهجى العام المشار إليه للتو، فيكون هناك منهج فلسفى تأصيلى عام ومنهج يختص به كل مقدم للاقتراح التأصيلى. كذلك، فإن لكل ميدان تأصيلى خصائصه الخاصة، فتظهر مناهج تأصيلية مخصوصة بكل ميدان تحديداً، كما هو الحال مثلاً فى منهج تناول مسائل أصوليات الفن الذى لابد أن يختلف عن منهج تناول طبيعة الذهن البشرى أو تناول غايات الحياة ومبادئ السلوك، إلى غير ذلك. أخيراً، فإنه عند ظهور ظروف ثقافية أو أصولية خاصة، فلابد من ظهور قواعد منهجية مخصوصة تقابل تلك الظروف، وهى التى منها ظرفنا نحن الحالى، الذى هو معاً ظرف إنشاء الثقافة الجديدة وإنشاء أصولياتنا العقلية الجديدة تماما هى الأخرى. هذه، إذن، جوانب أربعة للمنهج الفلسفى التأصيلى: جانب عام

مشترك، وجانب لكل فيلسوف فردى وجانب لكل ميدان، وجانب للظروف الاستثنائية الخاصة، وسوف يتناول حديثنا هنا الجانب الأول العام، لأنه يحتاج إلى ايضاح واتفاق ولأنه المؤسس لكل ما عداه، والجانب الرابع الأخير، لأننا ينبغى أن نتساءل عن منهج بناء فلسفتنا الجديدة فى ظرف استثنائى، هو ظرف نبذ الأوهام ودفع طرائق البحث المستحيلة من أجل إنشاء الفلسفة الجديدة والثقافة الجديدة معاً.

ثالثا: ما قبل المنهج

المنهج، فى النهاية، طريقة وخطوات تستهدف تحقيق نتيجة معينة، ولكن له كذلك مصاحبات ذهنية تفكيرية ووجدانية ومشيئية، كما أن السير على طريقه يستلزم تهيئات من أشكال مختلفة. عن هذه التهيئات اللازمة لبناء فلسفتنا الجديدة نتحدث فى القسم الحالى، لنتحدث فى القسم التالى عن تلك المصاحبات الذهنية المتنوعة، وهنا وهناك سيكون حديثنا أشبه بإثارة رؤوس الموضوعات وحسب، لنتفرغ بعد ذلك لمجابهة مسألة المنهج الفلسفى عموما ثم خصوصا على التالى:

ونقصد «بما قبل المنهج» عملية تهيئة الأرض للبحث الجديد الذى يراد له أن يكون مثمراً قوياً، تماما كما يهئ الزارع أرضه بتقليبها وبإزالة العوائق منها بأنواعها وبنزع الحشائش الضارة وما شابه. ولعل أوجب عناصر عملية التهيئة تلك هى ما نسميه «فضح الأوهام»، وهى عندنا: أوهام العالمية وواحدية الثقافة والحضارة والفلسفة والعلم وغيرها، وهو الذى يعنى الخضوع للغرب إلى الأبد، وأوهام إمكان بعث الماضى الثقافى الذى كان، وكأن الغزالى لا يزال يتحدث إلينا هو والبيرونى والمتنبى وغيرهم. ثم هناك شكل آخر للتهيئة، لعله أن يكون الوجه الإيجابى لشكل فضح الأوهام ذاك ألا وهو إعادة تقييم الأوضاع وإعادة فهم الوقائع مع ما يستتبعه هذا من ترتيب جديد للأولويات، لقد انتشرت مفاهيم بين الناس، من مثل «الإحياء» و«النهضة» وغيرهما، والواجب إعادة النظر فيها جذريا، بل وإعادة النظر فى وضعنا الثقافى والحضارى والوطنى والقومى كله، وهو ما يؤدى إلى رؤية جديدة للواقع وللواجبات: ذلك أن وضعنا إنما وضع من يقوم بخلق ثقافة جديدة تماما، إنه بإزاء الغرب أو بإزاء الموروث الثقافى لنا، لأن الحضارة الغربية ليست فقط هى الآخر المطلق، بل ولأنه من غير الممكن بحسب منطق الثقافات أن تكون هى لنا، وإن أمكن

استعارة بعض أدواتها ونتائجها، هذا بالإضافة إلى ضرورة الإدراك الواضح أنها قد دخلت، فعلاً وحقاً، إلى دور التحلل والانهيار منذ أوائل القرن العشرين الميلادى على الأقل، ولأن موروثنا الثقافى الذى صنعه بشر من بلادنا قد أصبح من التاريخ ومن الماضى حسماً وحتما، فليس فيه حياة فى الحق، هذا وإن كان من الواجب درسه ومعرفته لأنه شئ كان «يخصنا»، أما كل ما أنتجه الغرب وأسلافه فهو مما لا يخصنا فى شئ، وإنما هو يحدث أحيانا أن «يهمنا» إلى درجة أو أخرى لعلة أو لعلة مغايرة..

رابعا: مصاحبات المنهج التأصيلى (الفلسفى)

يحتاج بناء الفلسفة الجديدة، والتى لابد أن تنتج عن حركة إبداع جوهرى، إلى مصاحبات نفسية عزيزة، من أبرزها القدرة على المبادرة والمشيئة القوية الحاسمة والعزم الأكيد المتصل، ولن يتم ذلك البناء بدون بذل الجهد العظيم، وبعد أن يُبدأ فى ذلك العمل فلابد من الاستمرار عليه، وسط صعوبات ومعوقات من أنواع شتى، وعلى مر سنين طويلة، وهو ما يعنى التسلح بروح «النفس الطويل». إن هذه المصاحبات الوجدانية لا تقل أهمية بحال عن تملك روح جديدة تتجه نحو خلق المبتكر وعن التوصل إلى امتلاك الأدوات المناسبة للبناء الصعب المنشود، فلابد إذن من توافر روح التضحية، وهى شرط ضرورى عندما يراد القيام بعظائم الأمور.

ويحتاج إبداع الفلسفة الجديدة إلى التحرر إلى أعظم درجة ممكنة من الموروثات الثقافية والمعرفية والتربوية وكذلك من القضايا المشهورة التى تظهر وكأن لها مكانة الحق النهائى. إن تلك الموروثات معوقات أكثر منها معينات، ومنها مثلاً ما يقال عن ضرورة الأخذ عن فلان أو فلان من فلاسفة الثقافات والشعوب الغربية، على نحو ما توهم أحمد لطفى السيد وصحبه، كما أن القضايا المشهورة التى تظهر على ألسنة الكثرة بغير ما تفكير أو يكاد، ومنها على سبيل المثال دعوى أن هدفنا إنما هو الجمع بين أصالة غير ممكنة ومعاصرة غير منطقية، تلك القضايا التى تدعو إلى الكسل، وبخاصة إذا كانت بغير أساس من التاريخ ومن دراسة منطق الثقافات. من جهة أخرى، فلابد من توافر الجرأة على إعلان الاستقلال المنهجى عن السلطات المهيمنة بأنواعها ، لأن الشئ الفلسفى الأول هو الخضوع لرأى تقرره وتفرضه سلطة بشرية ما، وبغير ما فحص ولا تمحيص.

إن قصد الإبداع ضرورة مطلقة لكل إنشاء جديد، فلا تجديد إلا بالإبداع والابتكار، ولا إبداع إلا مع توافر قصد الإبداع، وهو غالبا ما ينتج عن شعور من الإلتزام أو الواجب أو المسئولية أو الرسالة. وهذه القضية الإبداعية ينتج عنها بالضرورة تحول فى الرؤية عند صاحب البناء الإبداعى الجديد تجعله يظهر مختلفا عن الآخرين، وهو وضع غير مريح إجتماعيا للأكثرين، وعلى صاحب البناء الجديد أن يتحمل كل نتائجه، ولكنه سيصل، مع تلك القصدية الإبداعية، وعند توفر شروط أخرى سنشير إليها من بعد، إلى إدراك المجال الفلسفى والثقافى على نحو جديد تماما تظهر معه أمام عينيه علاقات جديدة، ويؤدى هذا الإدراك إلى إعادة تركيب غير مسبوقة لعناصر الموقف. ولكن شرط تحول الرؤية هو القدرة على براءة النظرة، ومساندها هو قوة الخيال، ومساعدها هو الانتقاء و القدرة على التركيز على الأهم والمهم وترك الفرعى والجانبى من الأمور. أخيراً، وليس آخراً، فإن على بانى الفلسفة الجديدة أن يأخذ بحبل سياسة «النفس الطويل»، لأن التأصيل القوى يتطلب بحثاً طويلاً وتأملاً ممتداً ومحاولات وراء محاولات، كما أن جوانب التأسيس الفلسفى عديدة تعدد جوانب الوجود، فلا هيئة المقال الصغير بمسعفة فى البناء التأصيلى الفلسفى، ولا الاكتفاء بالنظر فى ميدان دون ميدان هو سبيل تكوين فلسفة وأصوليات شاملة قادرة على التأثير.

خامسا: المنهج الفلسفى عموما

أشرنا من قبل إلى أن المنهج عموما فى أمور المعرفة والتفكير هو طريقة منظمة فى البحث، ثم تتخذ تلك الطريقة أشكالاً محددة بحسب خصائص كل ميدان كبير على حدة، وهكذا يكون هناك منهج رياضى ومنهج للعلوم الطبيعية ولتلك الانسانية، وكذلك أيضا منهج فلسفى.

ولعل من أول عناصر المنهج الفلسفى البدء من سؤال المبدأ والأصل، أو فلنقل: من السؤال الأصولى، والذى يتخذ ثلاثة أشكال مترابطة تظهر على هيئة أدوات الاستفهام: ما؟ لماذا؟ لم؟ فيكون لدينا سؤال الطبيعة وسؤال العلة وسؤال الغاية، وكلها تتصل بما هو مبدأ وأصل. والتركيز على سؤال المبدأ والأصل يميز البحث الفلسفى التأصيلى، ويظهر على هيئة ما نسميه «بوضوح الوعى الأصولى»، ويوجد مقابل له

عند المشتغلين بعلم أصول الفقه عندما يتميزون بالحساسية التأصيلية والتقعيدية عن أقرانهم من المشتغلين بالفقه. والعنصر الثالث من عناصر المنهج الفلسفى هو استخدام البرهان، وذلك تفريعا على الاهتمام بالعلة، حيث إن الإتيان بالبرهان هو فرع من الإشارة إلى العلة. وفى هذا يختلف المنهج التأصيلى عن طريقة الشعر فى الإيحاء وعن طريقة السياسى فى فرض اختياراته عن طريق استخدام وجه أو آخر للسلطة؛ إلى غير ذلك. ثم يضاف إلى هذا كله، رابعا، أن البحث التأصيلى الفلسفى إنما هو حركة متواصلة متبادلة ما بين الأصول والفروع ذهابا وإيابا، لأن النظر الفلسفى نظر شمولى إلى جوار كونه نظراً تأصيليا، حيث إن الفلسفة هى بحث فى الأصول فى إطار الكل الشامل، إما مطلقا وإما فى هذا الميدان المخصوص أو ذاك (مثلاً الفن، الأخلاق، الحرية ....). ويسمح لنا هذا بالتأكيد على أن للفلسفة استهدافا مزدوجا: فهى تستهدف الوصول إلى مبادئ فى نفس الوقت الذى تستهدف فيه الإحاطة الشمولية بالكل، ولكنها إحاطة به من حيث أصوله ومبادؤه ومن حيث خريطة علاقات تلك الأصول والمبادئ بالفروع والنتائج فى داخل الكل. ولعل من المناسب أن نشير هنا إلى فرض مسبق ذى أهمية يقف من وراء الطريقة الفلسفية فى البحث، ألا وهو أن الجزئيات، والتى أشرنا للتو إلى شكل لها يتمثل فى «الفروع والنتائج»، ليست هى كل شئ ولا نهاية المطاف، سواء أكان ذلك فى ميدان الأشياء أو الأحداث أو القضايا، وإنما هى يقوم وراءها مبدأ ما، وهى لا تفهم إلا من حيث علاقتها به، حيث إنه ليس للجزئ من وجود مطلق.

ومن نافلة القول أن الخطوات التفصيلية للبحث الفلسفى تتحدد على أساس كل ميدان معين بل وكل موضوع معين، وأيضا على أساس اهتمامات كل أصولى وطريقته المختارة فى التناول. لذلك فما يهمنا هو الأمور العامة المشتركة فى البحث التأصيلى. وبالإضافة إلى ما ذكرنا منها، فإنه من المهم أن نشير إلى عدد من الاتجاهات تحدد روح البحث الفلسفى من حيث جوانب عديدة فيه. ومن ذلك أن الاهتمام بالأساسيات والأصول ينبغى أن يقترن به الاهتمام بالعلاقات الكبرى فى داخل الظواهر موضوع البحث، وأحيانا ما يكون المبدأ هو علاقة جوهرية، ومثال ذلك أن «السلطة» هى علاقة أساسية وهى مبدأ أول فى البحث التأصيلى فى طبيعة

obeikandi.com

السياسة. كذلك، فإن توجيه النظر إلى الأصول والعلاقات لا يتم بغير النظر التجريدى، فيكون التجريد من أهم ملامح البحث الفلسفى، وهو مقترن بالضرورة بالنظر الشمولى الكلى، فلا إدراك للكل إلا بالتجريد، لأن النظر المباشر لا يكون إلا لجزئيات. وفى المقابل، فإن الحس الفلسفى الصحيح هو الذى لا يهمل شيئا، بل هو يهتم بكل شئ، ولعل وراء هذا افتراضاً تأصيلياً ذا أهمية يقول إن كل شئ على علاقة بكل شئ. ولهذا ، أيضا، فإن الحساسية الفلسفية منتبهة دائماً إلى التنوع الشديد الذى فى الوجود، لهذا وجب الاستيفاء بقدر الامكان فى الإحصاء، لأن شمول الإحصاء جدير بالوصول إلى مبادئ وأصول أعمق وأشمل. إن النظر الفلسفى لهو حركة دائبة ما بين التعدد والوحدة. ومن اتجاهات البحث التأصيلى أيضا يقظة الروح النقدية دوماً وحضور حس التشكك الجدير بكل ما هو إنسانى، وهذا وذاك يسيران مع الحس بالنسبية يداً بيد. أما عن الاهتمام بالتدقيق فى فحص الأسئلة والمفاهيم والاستدلالات، فإنه أمر مفهوم، هو مراعاة الموضوعية فى البحث بقدر ما تسمح به الطاقة الإنسانية.

سادسا: المنهج فى بناء الفلسفة الجديدة وعناصره الخاصة

حيث أننا نبتغى بناء أصوليات جديدة تماما، أى أن نخلقها خلقاً وأن ننشئها إنشاءً، وذلك ليس على يد واحد بمفرده بل على أيدى أكبر عدد ممكن من القادرين على تقديم الرؤى التأصيلية الشمولية القوية، وذلك إن فى نفس عصرنا هذا أو عبر جيلين أو ثلاثة مما يلى، يقدم كل ذلك، عبر الزمن وعبر تتالى التجارب الثقافية وعبر الظروف التى ستعبرها جماعتنا الثقافية، على هيئة بدائل مقترحة لتقف الثقافة والأمة، بعد الاختبار والتأمل، على النظام التأصيلى الذى ترتضيه لنفسها لمدة أجيال أخرى، حتى تحين ظروف خاصة ويعاد النظر فى كل شئ، فيتعدل شئ أو أشياء هنا أو هناك ويتبدل شئ بآخر، ويلقى بثالث فى ظل الذاكرة، وقد يعود بديل كان قد هُجِر لوقت ما لكى يعدل بعد المراجعة فيظهر تحت ضوء جديد فى ثوب وتقديم جديدين، نقول حيث إننا نبتغى خلق أصولياتنا نحن المبتكرة والتى تخصنا حقاً وتعبر عنا نحن حقا وتكون من انتاجنا حقاً، فإنه لابد من وضع عناصر منهجية وإجرائية فريدة تناسب هذا الظرف الفريد، لكى تضاف إلى العناصر المنهجية للبحث التأصيلى ولكى تقودها وتوجهها باعتبارها الآمرة عليها ويمكن أنت تعدد أهم تلك العناصر على النحو

التالى، قبل أن نبين ما نقصده بكل منها بعد ذلك:

١- البدء من الصفر المنهجى معرفياً.
٢- البدء من الوجود مباشرة فحصاً وبحثاً.
٣- اعتبار الانطلاق من نقطة البدء المناسبة المفيدة.
٤- تحديد التراث المرجعى الذى تنطلق منه الأصوليات الجديدة.
٥- اعتبار لغة البحث التأصيلى والمصطلح.
٦- التنبيه إلى هيئة التعبير المناسبة.

أما مفهوم ،الصفر المنهجى،، فإنه يقصد منه أن الفيلسوف الجديد سوف يحاول ،معرفة، آراء أكبر عدد ممكن من المفكرين، إن فى ثقافتنا الماضية أو فى ثقافات الأمم الأخرى، الحية منها والميتة، ولكنه سوف يضع كل معرفته تلك، وهى على سبيل الإدراك الموضوعى لا أكثر، سوف يضعها ،جانبا، وهو بسبيل إنتاج الأصوليات الجديدة، وذلك قصداً وبقدر ما تسمح به الطاقة الإنسانية، لأن ذلك ،الوضع جانباً، هو الثمن الضرورى للخلق والإبداع. ونحسب أنه ليس فيما نتقدم به هنا من جديد حقاً من حيث المضمون ، لأن كل من درس عمليات الإبداع جيداً وجد فى سلوك عظام المبدعين شيئا منه، ويكفى أن ننظر إلى فنان تشكيلى، أو غيره، من المبدعين: فإنه لابد أن يبدأ بالتدرب على نقل أساليب الآخرين وعلى تقليدها، وهو ما يقابل ،المعرفة، التى تحدثنا عنها لآراء الآخرين ولآراء الثقافات الأخرى، ولكنه لن يصبح خالقاً لأسلوب فنى جديد هو نفسه إلا بثمن إلقاء كل ما تدرب عليه جانباً، لينطلق إلى استطلاع عالمه الجديد المبتكر.

ومن الظاهر أن المعارف التمهيدية المحصلة عن آراء الآخرين من الغير لا ،تعدم،، وإنما هى أصبحت ينظر إليها نظرة الشئ الذى ليس لنا على الحقيقة. وهكذا، فإن ،الصفر، المقصود ليس هو الصفر الحقيقى، فما من أحد بين كل البشر يبدأ، فى أى ميدان كان من الصفر المطلق، وإنما لا المقصود هو ،الصفر المنهجى،، زى السلوك ،وكأننى، لم أدرس شيئاً، و،كأن، ما درسته ليس من عوامل مجال نشاطى التأصيلى الخالق. وفى الحق، فإن هذه القاعدة الجوهرية لخلق الأصوليات الجديدة هى ضرورية كذلك لخلق شتى جوانب الثقافة الجديدة: وهكذا، فإن عالم أصول الدين

obeikandl.com

الجديد، مثلا، وعالم الفقه، عليهما معرفة كل آراء القدماء، ولكن من أجل إنتاج علم كل منهما الجديد المناسب لثقافتنا الجديدة، فإن عليهما أن يضعا كل ما تعلماه، بقدر الإمكان، جانبا، وأن يبدآن من «الصفر المنهجي».

وأما مبدأ «الانطلاق من الوجود مباشرة»، فإنه المبدأ المكمل وتماما لمفهوم «الصفر المنهجي»، إلى حد أن يكونا معا وجهين لنفس الأمر، حيث الاتجاه نحو الوجود يشكل الوجه الإيجابى، بينما اعتبار الصفر المنهجي يشكل الوجه السلبى. ذلك أن الوقوف مع الصفر المنهجي وحده يجعلنا نطل على العدم، ولن يفيد هذا فى العمل شيئاً، ولكن الحقيقة الكاملة هى أننا إذ نبدأ بفكر صاف لا يشغله مضمون معين من أى مصدر كان، فإننا ننطلق به إلى الوجود مباشرة، أى إلى الكائنات والأشياء والأحداث والعلاقات ذاتها، وهذا نفسه هو ما فعله عظام المفكرين فى حضاراتنا السابقة وعند حضارات الأغيار: إن إمحتب وأبا حنيفة (وهو القائل: «هم رجال ونحن رجال») وسقراط وديكارت، استخدموا ضمنا قاعدة الصفر المنهجى، واتجهوا إلى الوجود مباشرة وكونوا عنه تصوراتهم. واستكمالاً للمثالين اللذين ضربناهما منذ قليل، وهو علم أصول الدين وعلم الفقه الجديدين، فإن «الوجود» الذى سيتجه إليه خالقوهما منا إنما هو النص القرآنى والسنة الصحيحة الثابتة لكى يستخرجوا منهما التصورات الجديدة المناسبة للثقافة الجديدة، وكذلك فى سائر الميادين، من علم الفلك وفن العمارة إلى صناعة الملابس وإنتاج لعب الأطفال. إن الثقافة كل متكامل، وروح الخلق والإبداع ينبغى أن تخترق سائر المجالات لتنتج الثقافة الجديدة المبدعة.

وأما عن نقطة البدء المناسبة المفيدة من أجل انتاج الأصوليات الجديدة، فإننا نعتقد أن الأنسب والأفيد هو أن يبدأ الاقتراح التأصيلى بتقديم «رؤية جوهرية» تقف عند الخطوط الكبرى للموضوعات المحورية وتترك التفاصيل مؤقتا، لحين ظهور مشاركة جديدة من جانب هذا أو ذاك، أو من قبل نفس المفكر الأصولى فى وقت لاحق، ولكنها تكون مع ذلك شاملة وجامعة لكليات الموضوعات.

وأما عن التساؤل حول «التراث المرجعى» الذى تنطلق منه الأصوليات الجديدة، فإن الإجابة المتصلة به تظهر على نحو منطقى من تطبيق كل من قاعدة الصفر المنهجى ومبدأ الانطلاق من الوجود مباشرة: وهى أنه لا يوجد لنا تراث مرجعى

حقاً، وإنما هى معارف عن الجميع، عن القدماء من عندنا وعن الأغيار من شتى الحضارات والأمم، إنما تراثنا المرجعى هو الذى نحن نبنيه بأنفسنا، واحداً إلى جوار واحد، وجيلاً بعد جيل، بحيث أن الوصف الصحيح لما نقل إلينا من أهل ثقافتنا السابقة، بل كل ثقافاتنا السابقة، ليس أنه «تراث»، لأن التراث لا يكون إلا حيا فيما نرى، بل أنه محض «موروث»، ومكانه المعتاد هو المتحف وذاكرة الأيام. نعم، إننا لن، ولا نستطيع، أن نرتكن إلى أحد، فى الشرق أو فى الغرب، فى الحاضر أو فى الماضى، بل علينا أن نرتكن إلى ما نصنعه بأنفسنا صنع الخالقين. إن مرجعيتنا ليست آراء أحد أياً من كان، بل هى الوجود وتفكيرنا نحن واختياراتنا المتراكمات.

وفى اطار هذا الجهد العظيم الخلاق، فلابد للإنشاء الجديد وللمنهج الجديد من مصطلح تأصيلى فلسفى جديد وجديد تماما، فلن ينفعنا كثيراً معظم الحدود التى نجدها عند هذا أو ذاك، كما أننا نحتاج إلى كلمات جديدة بمعان جديدة تناسب أوضاعنا المختلفة. ولهذا، فإن نحت المصطلح الجديد وتقديم حدود وتعريفات جديدة للكلمات المهمة هما ضرورتان لازمتان من أجل استواء فلسفتنا الجديدة على طريق الخلق والثراء والفاعلية والتأثير جميعاً.

أخيراً، فإن هناك إجراء آخر يضاف إلى الإجراء السابق للتو، ألا وهو استخدام وسيلة الكتاب المطول فى عرض الأصوليات الجديدة المبتكرة، لأن شكل المقالة الصغيرة، بالمعنى الذى تستخدم به فى أيامنا هذه كلمة «مقالة»، لا يمكن أن يسمح بالنشاط التأصيلى على الوجه الصحيح وباستيفاء كل موضوع حقه الحقيق.

سابعا: كلمات ختامية

القضايا النظرية التى عرضنا لها تجد تطبيقات إجرائية لها فى كتب صاحب هذه الكلمات التى ظهرت حديثا تحت عنوان عام مشترك هو: «بناء الفلسفة الجديدة»، وهى «تأسيس الحرية» و«طبيعة الحرية» و«الذات ونظرية الفعل»، كما أن كتابيه الأسبقين «الفلسفة المصرية. شروط التأسيس» و«مستقبل الفلسفة فى مصر» يفصلان فى بعض المفاهيم والمبادئ الأساسية التى عرضت لها بكل ايجاز الصفحات السابقة، فيمكن، إذن، للباحث عن التطبيقات الفعلية وعن التفصيل العودة إلى بعض هذه الكتب بحسب الغرض المبتغى.

ونختم هذا العرض بالتأكيد على بعض الأمور. أولاً، فإن صنع فلسفتنا الجديدة لا يمكن أن يكون من شأن فرد واحد ولا هو فى مقدور فرد واحد، بل هو شأن كل القدرات الفكرية الخالقة، وكلٌ فى ميدانه، تماما كما أن خلق ثقافتنا الجديدة ليس من شأن بلد معين، بل هو من شأن كل البلاد التى تتكلم العربية، لأن محور الثقافة الجديدة شكلياً هو أنها بلغة الضاد، وسوف تؤدى الثقافة الجديدة إلى ظهور أمتنا الجديدة على أسس جديدة وبعيداً عن الصيحات العنترية الناتجة عن أقاويل أسطورية أطلقها بعض الهواة ومن منطلق مصالحهم الضيقة. وفى ذلك فليتنافس المتنافسون، بل قل المتسابقون إلى خير الثقافة الجديدة وأمتها الجديدة وحصانتها وقوتها وازدهارهما. وفى هذا الإطار المنهجى والوجدانى معا، فإن على كلٍ منا أن يقول كلمته على أقوى وجه وأكثره إقناعا، ولكن ليس لأحد أن يفرض رؤيته على الباقين. نحن جميعا أصحاب اقتراح، والشعوب والأمة الجديدة هى صاحبة الاختيار. وهكذا، فإن فى المجال متسع للجميع، تماما كما أنه من غير المسموح به فرض رأى أو احتكار مكانة.

ثانيا، فإن المفكر الأصولى لا يفكر لنفسه ولا لحسابه . صحيح أنه يفكر باسمه، ولكنه يفعل ذلك باعتباره ممثلا للجماعة الوطنية وللثقافة الجديدة وللأمة الجديدة، فالأدق أن يقال إنه لا يفكر باسمه الفردى، بل من حيث أنه ذو صفة، وهى صفة الممثل للجماعة والثقافة. إنه يفكر بصفته لا بشخصه.

ثالثا، إن المقترح الجديد، فى أى ميدان كان من ميادين الثقافة، خاصة حينما يكون ثوريا حقاً ومختلفاً اختلافاً بيّنا، يلقى المعوقات والتشويش وشيئا من إهمال مقصود، ولكن الصعوبات ينبغى أن تكون حافزاً على زيادة العزم لا أن تكون باعثا على التخاذل. إن المفكر المجدد ذو عزيمة بقدر ما أنه ذو تواضع حقيقى لأنه يدرى معنى المساواة البشرية ونتائجها. لكل هذا، فإنه يدرى أن محاولات التعتيم على الخلق الفلسفى التأصيلى الجديد حقاً قصيرة العمر وسرعان ما تفصح بواعثها، وسرعان ما تدرك الجماعة الثقافية أين خبزها وماؤها الحقيقيان.

عزت قرنى